المفارقة في شعر بشار بن برد

نماذج مختارة

م. د. حمد محمد فتحي ألياس الجبوري
جامعة الموصل/ كلية الآداب

ملخص البحث

توضح الدراسة المفارقة في شعر بشار بن برد محاولة في ذلك دراسة نماذج مختارة في شعر الشاعر بالشكل الذي يتناسب مع موقف الشاعر في تشكيل صورة المفارقة وإن كانت متشابكة في إيجاد ثراء النص الشعري وماهيته اللغوية ولاسيما في أن النص الشعري قد يحمل تأويلاً يختلف من تأويل نص إلى نص شعري آخر في المعنى نفسه لكن كسر أفق التوقع المبنية على المفارقة اللفظية والمعنوية أنبثقا في الوصول إلى غاية النص الذي أراد من خلاله الشاعر أن يجعل لذة ومتعة للنص عبر مواقف كان لها وظيفة مغايرة تعطي النص خصوصية واضحة ومميزة امتازت بعدة سمات سواء كانت على مستوى اللفظ أم على مستوى المعنى.

مقدمة البحث

لا يخفى على أحد من أن المفارقة لها أثر واضح في سياق النص الشعري لبشار بن برد، إذ لا يمكن اغفال ذلك الأثر؛ لأن المفارقة من العناصر الماثلة في أبيات بشار بن برد فهي حقيقة ابتدأت مع بدأ حياة الشاعر، واستمرت معه، لكونه عانى من عاهة العمى مما أثار ذلك حفيظة الدارسين لشعر الشاعر، فلا نجد في هذه الدراسة أكثر من محاولة للتفكر والتأمل والتأويل في المفارقة التي أذكاها الشاعر في شعره عن قصد أو غير قصد، لذا ارتأت الدراسة أن تكون موزعة على ثيمتين لشعر الشاعر وهكذا تحددت من خلال ديوانه، ومن هنا جاءت رحلة البحث فالتقطنا أبيات مختارة تتضح فيها ظاهر المفارقة سواء أكانت مفارقة ذاتية أم موضوعية أم خطابية للأخر تتعلق بالتناقضات، والمتضادات بما يحمله النص الشعري من تأويلات فكرية عميقة ونفسية في اللحظة ذاتها، فكان المنبع الأساس في الكشف عما يعانيه الشاعر من حالة نفسية مؤلمة تجاه المحيط المجتمعي آنذاك.

واقتضت الدراسة أن تكون موزعة على تمهيد يتعلق بالمفارقة لغةً واصطلاحاً بشكل موجز وبسيط لكي يعلم المتلقي حقيقة ما يقرأ من مفارقة ومعناها بالشكل الذي وصلت إليه الدراسة.

كذلك تضمنت الدراسة محورين هما: أولاً المفارقة الخطابية للآخر، ثانياً : المفارقة الذاتية، وهاتان المفارقتان حددتا توظيف الشاعر لتلك الانعكاسات النفسية في الشاعر نفسه، وبعد ذلك جاءت الخاتمة لتسجل أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة .

المفارقة بين اللغة والاصطلاح:

لا شك في ذكر المفارقة من الناحية اللغوية وذلك لتوضيح معناها بالشكل الذي يتطلب للقارئ أن يعلم معناها اللغوي؛ لأهميته وإبراز خصوصيتها لذلك ذكرها ابن منظور في أنها مأخوذة من الجذر الثلاثي لمصطلح (فرق) وهي خلاف الجمع وقوله فرقه، يفرقه، فرقاً وقيل فرق للصلاح فرفعاً وفرق للإفساد تفريقاً وتفرق الشي وتفرق وافترق. كما يؤكد أيضاً بأن الفرقان هو القرآن وكل ما فرق به بين الحق والباطل[١] إذاً كلمة الحق تأتي بمعنى التفريق حسب كلام ابن منظور للتفريق بين الشي وضده في حين نجد عالماً آخر يتناسب مع المعنى نفسه صاحب كتاب ترتيب القاموس المحيط بقوله: "وقد سمي الفاروق عمر بن الخطاب (ﷺ) بذلك لأنه فرق بين الحق والباطل" واظهر الإسلام ذلك في، تفرق بين الإيمان والكفر[٢]. نستشف من ذلك بأن معنى المفارقة متناسق إلى حد ما مع المعنى المتعارف عليه لدى علماء الاصطلاح والعلم الحديث وقد لا يختلف شيئاً أي بمعنى أن كلمة واحدة تعطي معنى متضاداً ومتناقضاً وهذا ما وجدناه عند علماء اللغة الاقدمين. فبالنسبة لمصطلح المفارقة في النقد الحديث نجد بأنها الانسجام في توافق الأضداد أو اتساقها[٣].

فالميدان الأساس لعمل المفارقة بالشكل الاصطلاحي هو كيفية التعامل مع اللغة الشعرية على أساس الشيء المتناقض أو المتضاد أو اختلاف المعنى بلفظة واحدة معتمدة على السخرية المرتبطة بالمفارقة ومن خلال الخطاب الفلسفي نجد أن المفارقة لعبة خطابية تتحدد بوساطة التلاعب بالألفاظ التي تعني نقيضه[٤] في حين نجدها عند افلاطون تتعلق بالجدل القائم على توليد الافكار وادعاء التجاهل والتجهيل[٥] في حين نجدها عند أرسطو "شكلاً من أشكال البلاغة المنضوية تحت اسلوب المدح في صيغة الذم واسلوب الذم في صيغة المدح[٦] لذا ولا غرابة في " أن نجد اشتراكاً في تصورات الباحثين العرب للمفارقة عامة ولمفارقة السخرية بنحو خاص، وربما كان السبب وراء ذلك كون المفهوم معقداً في الأصل ويتداخل من جهة مع تقنيات البلاغة، ومن جهة أخرى يتداخل مع فنون وعلوم مختلفة كالمسرح والتشكيل والأدب والفلسفة والمنطق"[٧]. إذاً يمكن أن نقول بأن المفارقة هي مقابلة بين مصطلحات تتشابك فيما بينها ولا سيما السخرية والتهكم والتناقض والتضاد في نسج خيال يدخل فيه روح الدعابة والانتقاد وفي ذات اللحظة التي يوضح الشاعر بها أثناء هجائه أو انتقاد أعدائه والآخر بالصورة التي يراها هو.

المفارقة اللفظية: لا شك أن المفارقة اللفظية هي "التعبير المنطوق للمعنى المقصود، الذي يتحمله السياق اللغوي أو الموفق التبليغي المراهن، ويحدده من أجل ذلك"[٨]. فالمفارقة تتنوع بحسب السياقات التي ترد فيها السخرية والاستهزاء بالآخر بشكل يكون منسجماً مع الموقف الهزلي أحياناً وغير هزلي أحياناً أخرى بمعنى المفارقة تهدف "إلى اخراج أحشاء قلب الإنسان الضمية لذى ما فيه من متناقضات وتضاربات تثير الضحك"[٩]. هذا من ناحية الموقف الذي يرتبط بالسخرية، أما من ناحية الأخرى أي أن المفارقة "أحد عناصر التعبير اللغوي الذي يدل على الاستحسان ، وإن لم يكن هذا المعنى إلا المعنى الظاهر أو المباشر الذي يتخذ التعبير قناعاً يخفي وراء معنى آخر"[١٠]. أي إن ما يقال ليس ظاهراً إنما هو معنى باطني تقوم عليه المفارقة بالشكل المتناسق وبالتعبير الذي يفضي إلى التضاد والتناقض قائم على الاستهزاء والتهكم.

نستطيع القول بأن المفارقة في المفهوم الفلسفي لا تختلف ولا تبعد كثيراً عن معنى التناقض والتنافر والتضاد والسخرية في إطار أسلوب لفظي قائم على الهدوء والنمط السلوكي الذي يتخذ من اللغة اسلوباً خادعاً مغايراً وبالتالي الوصول إلى الغاية التي أراد من خلالها اطلاء النص بالشيء من السخرية التي تحمل طابع المفارقة.

اما فيما يخص المفارقة لآراء النقاد العرب ربما قد لا يختلف كثيراً من معناها المذكور آنفاً في المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي عند الفلاسفة لذا عرفها الزركشي بـ ((افراج الكلام ضد مقتضى الحال فضلاً عن مصطلحات الذم في معرض المدح والسخرية وتجاهل المعارف))[١١] أما عند عبد القاهر الجرجاني فقد أعطى لها ميزة راسمة خاصة تفضي إلى المعنى ومن المعنى الذي تجسد فيه فنون الكناية والاستعارة والتمثيل فيما يتعلق بالتشبيه وأنواعه بالشكل الذي يراه متوافقاً لمقتضى الحال[١٢].

فمن خلال ما تقدم نستطيع القول بأن المفارقة تكاد تكون بمثابة تعريف شامل يتعلق بماهية الاضداد والتناقض القائم على السخرية بشيء يتعلق بالسياق النصي القائم على مقتضى الحال على مستوى الضدية المندرجة في إطار النص الشعري أو أي نص آخر يتعلق باللغة التي لها أدوات وآليات منضوية فيها عدة مستلزمات نصية تدخل في غور المفارقة اللفظية والمعنوية وبالتالي تحقق مجالاً رحباً في سياق النص العام بصورة مباشرة وغير مباشرة.

المفارقة الخطابية للآخر:

والتي يقصد بها تلك المفارقة التي يمكن للقارئ أن يفهمها عبر السياق الموجه للخطاب أي الذي يخاطب الشاعر بأبياته المترابطة بالألفاظ والعبارات الدالة على ذلك، فالذات البشرية لا تكتمل داخل مفارقاتها إلا بخارج حدود سياقاتها الخطابية؛ لتصبغ كل ما حولها بصبغتها وتجعل من المفارقة وسيلة في إحداث أثر آني محدد في المتلقي، الأمر الذي يحتم اختيار مفارقة مناسبة لهذا الحيز الشعري تبعاً للظروف الخارجية والتي لابد للمخاطب أن يعرفها من خلال سياق التناقض، والتضاد نحو "نزوع أصيل إلى الانفتاح خارج اللغة على كينونة من الغياب وفق علامة النص بآخر خارج النص"[١٣]، وهذا ما وجدناه في المفارقة الخطابية لتشمل ألواناً من الترميز والتخيل، وفقدت ألتصاقها بالمعنى الواحد ومالت إلى جانب من التعدد بشكلٍ أو بآخر ومن ثم الوصول إلى نوع من الخطاب المفارقاتي الذي فيه نوع من الاستفهام والسخرية والتهكم[١٤]، ونجذ في ذلك الخطاب المبني على المفارقة واضحاً وجلياً في شعر بشار بن برد من خلال مجموعة مفارقات شعرية التي أدت إلى إنتاج موقف انفعالي مع الآخر (المخاطب) وجدناه في أبياته الآتية مبنية على مفارقة تضادية تهكمية في طابع من السخرية ولاسيما قوله[١٥]:

نعَم الفتى لو كَان يعرفُ ربّه ويُقيمُ وقت صلاتهُ حَمادُ
وأَبيضُ مِن شُربِ المُدامةِ وجُههُ وبَياضُهُ يَومَ الحِسابِ سَوادُ

يمكن قراءة البيتين في ضوء المفارقة المبنية على تضاد متنافر بين شيئين متناقضين ألا وهما اللذين يتمركزان في بنية البيت الثاني في صدره، وفي عجزه ولاسيما في كلمة (أبيض، بياضه) ففي صدر البيت انتشى في أوج نشوته وبياضه عندما يشرب الخمر وفي حالة استرخاء وفقد للعقل لكنه وإن كان بياضاً له فالبياض ليس مادياً كانت نتيجة (السكر) وفي عجز البيت تتواشج دلالة البياض بسواد وهنا تكمن المفارقة لأنها مفارقة ساخرة تعتمد ذلك التضاد الحاد بين موقفين من الضعف والقوة، ومن الشهرة والخمول ومن العقل إلى المخمور ومن الطبيعي الواعي إلى اللاوعي[١٦] فهي وسيلة تجعل من التضاد فاعلية قائمة على معنيين بلفظ واحد لإعطائه صورة تحمل بعداً فنياً، وجمالياً لما فيه من تنافر في سياق المعنى المطلوب وبالتالي تحريك عقلية القارئ فالمعلوم أن اجتماع الشيء ونقيضه بلفظة واحدة هو نتيجة تراكمية قسرية للتضاد وذلك في ((قدرة هذه الثنائيات الضدية في إحداث سلسلة من المفاجآت والصدمات التوترية من خلال المقابلة))[١٧] فالنص احتوى على لفظ الدنيا عبر شرب المدامة وكذلك لفظ الآخر ألا وهو يوم الحساب فجمع الشاعر بين دارين الدنيا شرب الخمرة والآخرة بياضها الذي حصل بسبب شرب الخمر هو سوادها فالمفارقة جمعت بين اسناد البياض الدنيوي وبياض السواد الآخروي، فالسياق نهض بشكل مباشر وغير مباشر على المفارقة الاضدادية ولاسيما الجمع بين المتنافرات أو ما يسمى بالمفارقة الانقلابية[١٨] كما في الترسيمة الآتية:

ابيض ← شرب المدامة. (دنيا)

بياض ← سواد وعذاب. (آخرة)

من خلال المفارقة التضادية يظهر الشاعر ضدية في موطن آخر ولاسيما في قوله[١٩]:

أصفراءُ أيام النعيم لذيذةٌ وأمنت مع البؤس ألذُ وأطيبُ

أصفراءُ في قلبي عليك حرارةٌ أصفراءُ لم وفي كبدي الهيماءُ نارُ تُلهَّبُ

أعرفك يوماً وأنني إليك لمشتاقٌ أحنُ وأنصبُ

تتحدد المفارقة المبنية على التناقض ما بين أيام النعيم التي يعيشها الشاعر وما بين البؤس الذي فيه لذة وسعادة طيبة وهي إما يتناقض في ذات اللحظة فالشاعر ينسى كل شيء وإن كان في بؤس، وعذاب، ولكن ذلك البؤس هو لديه لذة عندما يذكر الفتاة صاحبة اللون الأصفر الجميل لوجهها دون أن يراها فعنصر المخاطب المباشر بسياق الاستفهام الذي يميل للآخر ممدوحته المرأة فبذلك أعطى ذلك الخطاب جمالية للمعنى في صورة المشهد القائم على المفارقة التناقضية، الذي نتج من تكرار حرف (الهمزة) ثلاث مرات ولا يخفى ما لهذا الحرف من وضوح في التساؤل والذي لا بد له من جواب بـ (لا) وبتكراره عدة مرات يولد ايقاعاً داخلياً متناسقاً ومنسجماً مع قصدية (للمرسل) فبذلك تحقق الدلالة الايجابية المقصودة لممدوحته عبر التعبير بأساليب المنافرة والمفارقة تكاد تكون بصورة متوالية، لتعكس احساساً حادًا وشعوراً متناقضاً، يعبر عنه المنتج في لغة مرموزة خطرة، يتموضع التناقض فيه على مستوى البنية السطحية للنص الذي فيه سبر اغوار الذات المرسلة إليه[٢٠]. ثم يأتي

في البيت الثالث ليعمق دلالة المفارقة ولاسيما في (لم اعرفك يوماً) وبعدها يقول (اليك لمشاق أحن وأنصب) وهنا تكمن مفارقة روحية نفسية تنطلق من وجدان الروح دون أن يعلم الآخر مجاله وهذه هي قلب المفارقات التناقضية إذا صح التعبير الانقلابية، بلغة كومي بالأفراد الحاد حتى يرجع الأمر إلى ظاهرة وجودية عميقة في سياق النص (أحن وأنصب) وهي لا تعلم بذلك كونها لم تعرفه وهذه مشكلة تضادية بين محبوبين لا يعرف احدهما الآخر فقط بالصورة الخيالية التساؤلية المبنية على الاستفهام القائمة على هرم المفارقة وهذا ((وليد موقف نفسي))[٢١] فالدلالات في متون النص المفارقي وخلاياه تعمق الاحساس بتلك المفارقة بين الآنا الشاعرة والمحبوبة المقصودة لأن ((التنافر في بنيته العميقة تناسق والنشاز تناغم والخلاف انسجام والنهاية بداية والبغض لون من ألوان الحب))[٢٢].

فتوظيف المفارقة لم يكن اعتباطياً بل كان فيه قصدية من قبل الشاعر نفسه ونجده في مفارقة أخرى تجعل من الطبيعة شأناً آخر ولاسيما في وصفه للشمس إذ يقول[٢٣]:

والشَمسُ في كَبدِ السَّماء كأنَّها أعمى تَحيَّرَ مَا لَدَيهِ قائدُ

فالشاعر يجعل من (الشمس) مفارقة في موضع الحيرة؛ لأنه كفيف لا يبصر وربما يعمق حالة الحزن، والألم، والأسى الذي يعانيه من مكابدة أثناء النهار والليل فهنا (ثنائية الليل والنهار والضوء والظلام) مستفيداً من التشبيه على سبيل الاستعارة التصريحية، استخدمها الشاعر داخل التشبيه فتحول المشهد من طبيعي ألا وهو (الشمس إلى معنى حسي ألا وهو (الأعمى)) اعتمد فيها على اللفظ بشكل كبير ما يتوافق مع الموقف وينسجم مع حالته وما هو بصدده، فأخذ الفعل (متحير) استمراريته وصيرورته إذ به تلك نفسه وما به من حيرة من أمره بالذي تحير ما ليس له قائد يوجه إلى الطريق وهو يقف متحيراً، كما شكل الطباق ركيزة في بناء الصورة التضادية تمثلت الضوء والظلام، لكنهما حملا دلالتين الأولى نسبته إلى (العمى) لشدة ألمه الثاني إلى الشمس (حيث الضوء والضياء) فالتضاد الموجود في هاتين الدلالتين وظفه الشاعر توظيفاً مغايراً؛ ليعطي رسالة مفادها أن التوحد (الأحمر) موقف نفسي رهيب يجتاح نفسه القلقلة المتحيرة؛ لأن السياق المتنافر يدخل في إطار تعميق الدلالة وبالتالي يلقي بظلاله الايحائي على شبكة النص مع تعالق في بنية المفارقة القائمة على اللفظ.

المفارقة الذاتية: هي المفارقة التي تقصدها الذات الشاعرة بمخاطبة النفس والتساؤل بشيء من التنافر والتناقض ولربما تمتزج شيئاً ما مع قرينتها الأولى المفارقة الخطابية؛ لأن الشاعر غالباً ما يخرج بين الأثنين، أما فيما يتعلق بالمفارقة الذاتية فإننا نجد في أبيات بشار بن برد مفارقات ذاتية التي يصف بها نفسه أو مجموعة مجتمعه فالخطاب ذاتي بالدرجة الأولى، إذ اعتاد الشعر العربي القديم التركيز على المطلع للتأثير في المخاطب أو المتلقي.

إذ إن المفارقة التي يرسمها الشاعر للآخر توحي وتعبر وترمز قناعة تامة بأن هناك جدلاً للذات الشاعرة إتجاه الآخر[٢٤]. فمن الطبيعي أن تنعكس وتترتب على العلاقة بين الذات التي لها دوافع نفسية اجتماعية ومع التقارب بالآخر في نص الشاعر لبشار بن برد، إذ شغل المفارقة في بعض أبياته.

ونجد الشاعر في موقف آخر يضيف مفارقة تتعلق بوصفه للدهر بأنه ذلك الصياد الذي يصيد الناس أحياناً، وأحياناً يخطئُ وجمع بينهما بمفارقة لفظية ولاسيما قوله[٢٥]:

ومَا نحنُ إلا كالخلَيطِ الذَّي مَضَى فَرائِسُ دَهر مُخطئٍ ومُصيبِ

تأتي السخرية والتهكم من الذات بمفارقة يجعل من حياته بأنه فريسة لذلك الدهر، وهذه هي المفارقة الحتمية التي استطاع أن يبوح بها عبر لفظ (فرائس دهر) ولكن تلك الفريسة أحياناً تصاد وأحياناً لا تصاد. وهذا ما يريده الشاعر من خلال شبكة الطباق وهي الركيزة الأساسية في بناء صورته التي تمثلت بين اللفظين (مخطئ، مصيب) فالخطأ والإصابة صفتان للإنسان إلا أن معناهما في النص حملا دلالتين متفارقتين، أما حياة، أو موت، والأمر في النهاية إلى المضي أي معبر واحد بعد المفارقة (الموت) لكنه استطاع أن يجعل من الخطأ والصواب دلالة المفارقة؛ ليخرج على أهمية التأكيد في جعل الدهر هو ذلك الصياد عبر الدوال التي أكدت على الموقف، ولاسيما استعمال الفعل معنى مع الاسم الموصول (الذي) مع الحرف (الكاف) الدال على التشبيه مع الضمير الرفع المتحرك (نحن) مع ما (النافية) وكل تلك الدول هي ايقونة النص التي زادت المعنى أكثر حركة، واكثر معنى، فلم يجد الشاعر سوى الافصاح عن تلك المفارقة بلغة واضحة توحي بالسطحية وبالتناقض على سبيل الاهتمام مع الانسجام والتوافق في سياق النص الشعري.

ونلاحظ الشاعر في مفارقة لفظية ومعنوية يحدثنا بذلك ولاسيما في قوله[٢٦]:

لَقَيَ القلبُ بسَلمى عَجَباً فَوقَ العجَيبِ
أخَصَبتْ عندي وإنّي عَنْدَها غَيرُ خَصيبِ
قَلبتْ لي الريحُ سَلمى شِمَالاً بعْدَ الجُنوُبِ
وكذلك الدهرُ صعبٌ بَينَ خَفضٍ وركُوبِ
لَو بها مَا بِي إليها من حَنينٍ ونحَيبِ
أقبلت إقبالَ صادٍ راعه صوت المهيبِ
أسلمي يا سلمُ يوماً واكشفي بعض كُروبي
لا تَعْذُّي الحُبَ ذَنباً لَيسَ حُبي مِن ذنوبي

تبدو المقطوعة الشعرية قد بنيت على مفارقة العاطفة الملتهبة والعاطفة المتراضية ولاسيما من البيت الأول الذي بدأ بالجملة الإخبارية والإعلامية (الفعلية) أي الفعل الماضي (لقي) ومن ثم التصق بذلك حرف الباء الذي من دلالته الشدة والألم الذي يعاني من حب سلمى والملاحظ على المقطوعة أنها انتهت بحرف الباء الذي اعطى الدلالة نفسها، دلالة الألم، والشدة وقت الانفعال مع حضور واضح للضمائر المتكلم، والغائب، فضمير المتكلم عائد على الانا الذات الشاعرة إذ ألم التوجع والآهات، وضمير الغائب عائد على سلمى من مفارقات

ايجابية وسلبية، في ذات اللحظة بين الخصب، وغير الخصب وبين الشمال، والجنوب، والخفض والركوب، والحنين، والنحيب، والذنب، والذنوب، وهنا يأتي دور المستوى البلاغي الذي حققه في النص أي أن الجناس قد طغى على النص الذي من دلالته دال على التجنيس بما يتناسب مع مقام الحال الذي انفعل به الشاعر فتجد ذلك حاضراً في (عجب وعجيب) و(وأخضبت وخصيب) و(اقبلت واقبال) و(اسلمى وسلم) و(ذنب ذنوب) فضلاً عن ذلك اتى دور الطباق الذي بدأ واضحاً في قوله (الشمال والجنوب) و(الخفض والركوب) و(الحنين والنحيب).

ويسترسل الشاعر في المفارقات اللفظية التي تدل على التناقض ولاسيما في هجاء قبيصة بن روح بن حاتم المهلبي ومدح داؤد بن يزيد يقول الشاعر[٢٧]:

دَأوُد محمدُ وأنت مُذَممٌ عَجباً لذاك وانتُمَا من عُودِ
ولرَبِّ عُودٍ قَد يُشقُ لِمسجدٍ نصفاً وسائرهُ لحشّ يهُودي
والحشُّ أَنتَ لهُ وذاكَ لِمسجدٍ كَم بِينِ موضعٍ مُسلحٍ وسُجودِ

فالأبيات الشعرية تحتضن الشيء ونقيضه ولاسيما في استعماله مصطلح (عود) فالعود قد يشق من وسطه في بناء مسجد ونصفه الآخر في بناء مكان لعبادة اليهود، وهنا محض تساؤل كبير جداً والمفارقة كبيرة والفرق كبير جداً كم هو البون الشاسع بين الموضع الذي يسجد فيه المسلمون والمكان الذي يتعبد فيه اليهود وهذا فرق كبير ومفارقة جعلت من النص قائمة الموازنة والتعليل؛ وإن كان الأمر في مقدمة هجاء لقبيصه ومدح لداؤد كلاهما من عود (واحد) كذلك مكان العبادة للمسلمين واليهود وكلاهما من عود واحد. وهذا ما يطلق عليه بالتراكم القسري للطباق في ((قدرة الثنائيات الضدية في احداث سلسلة من المفاجآت والصدمات التوترية من خلال المقابلة))[٢٨] ونستطيع من خلال ذلك أن نوضح ونبين ماهية تلك المفارقة المبنية على اللفظ والمعنى في ذات اللحظة مكونة بذلك انموذجاً قائماً على التناقض والفارق الحاصل بين الاثنين كما يأتي:

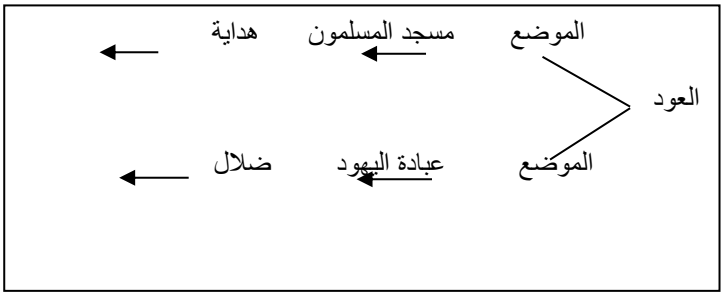

لكن بشار إنما جاء بذلك الآخر ليجعل منه في تضاد مع الممدوح، الذي يحظى بطبيعة الحال بخصال الإسلام والعبادة الصحيحة في حين يخرج ذلك الشخص المهجو وقد تلبس بصفة ذميمة ولاسيما العبادة القائمة على الضلال، فيكون الشاعر بطريقته المفارقاية الساخرة أن يجعل من كلامه مثالاً للمفارقة التناقضية بشكلٍ وبآخر. فضلاً عن ذلك ركز على الضمير الذي دل على المخاطب وضمير المخاطب من شأنه أن يجعل من النص الشعري صفة توكيدية وتأكيدية إن دلت على شيء إنما تدل على أهمية ذلك الوصف المبنية على مفارقة السخرية ولاسيما كان واضحاً في قوله (الحش أنت) فالضمير هنا أراد به السخرية من الآخر فالجملة الاسمية

دلت على الثبات فهذا وصف قوي ساخر من الآخر بالهجاء المفارقي فهنا ربط بين تجربتين شعريتين وشعريتين في ذات اللحظة والرابط هو (العود).

إن المفارقة الذاتية في النص الشعري تكتسب حيوية واضحة من خلال تجربة الشاعر ورؤيته النفسية من خلال تداعي معاناة شعورية اقحمته بين لواعج الهوى والحنين للمحبوبة من جانب وبين مفارقة الحرمان والجفاء اللذين وقعا عليه من جانب آخر إذ يقول[٢٩]:

لا تستطَيع الهوى وهجرتُها قَلبي ضعيفٌ وقلبُها حَجرُ

ينطوي هذا البيت الشعري على التقديم مفارقة ذاتية تتعلق بقلبين القلب الأول هو ذلك الحجر الذي ليس فيه لين ولا رقة ولا عاطفة يقابله قلب آخر رقيق أسيف عاطفي وهنا تكمن المفارقة التي يطلق عليها مفارقة مصطلح بمعنى واحد؛ لأن القلب واحد تكنه أصبح قلبين بالمعنى كما في الترسيمة الآتية:

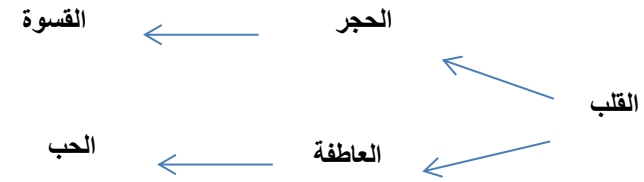

أي بمعنى أن الشاعر قد دقق بالموضوع وقال لا بدأ بالنهي ولا استطيع عن توجيه اللوم للمخاطب والمتكلم نفسه من خلال ضمير الغائب (وهجرتها) وضمير المتكلم (قلبي) والغائب الآخر (قلبها) فهنا مفارقة تعتمد على الضمائر المتنقلة ما بين المتكلم والغائب تمهيداً للأنتقال بالنسق من الغياب فتتجلى لغة الغياب على مستوى التكوين الكلي للنص كما تتجلى على مستوى مكوناتها الجزئية ونسيجه اللغوي[٣٠]، ليركز على صفة المحبوبة الخاصة بقلبها الذي أضمر أمامه وكأنه حجراً يتناقض إذ ما قيس بقلبه العاطفي موظفاً بذلك المقابلة بـ(قلبي) و(قلبها) وهذا استثمار لفاعلية التضاد وعبر عنصر المفارقة بين تلك اللفظتين لاعطاء بعداً فنياً وجمالياً في ذات اللحظة لما فيه من تنافر في المعنى المحسوس ليترك اثراً عميقاً في نفس المتلقي.

ويطلعنا بشر بن برد في مفارقة متنافرة أخرى يخاطب فيها عبدة التي طالما تعلق قلبه بها إذ يقول[٣١]:

أعبدةُ قد غَلبَتِ على فُؤادي بذلكَ فارجِعي بعضَ الفُؤادِ
جمعتُ القلبَ عندكِ أمَّ عمروٍ وكأنَّ مطراً في كُلِ وادِ

في قوله (أعبدةُ) وهذا الاستفهام ينم على أن الشاعر قد شغف بحب تلك العبدة من خلال مخاطبته إيّاها؛ لأنه يصرح بذلك باكتمال معناه في البيت الثاني (جمعت القلب) والسؤال يطرح هنا نفسه هل أن بشاراً الذي كان كفيفاً كيف أحب عبدة ذات لون أسود من دون أن يرى وجهها، فالنفس البشرية تواقة لحب الشيء الجميل ولاسيما البياض وهنا تكمن المفارقة اللونية القائمة على السواد، وبهذا أثبت أن المفارقة عند بشار كفاءة لغوية بما تكتنزه من رموز وإيحاءات ومعانٍ تتبدد في ثنايا النص عبر دلالات حقيقية حسية، ومعنوية، وتظهر الدلالة المفارقاتية

بمغايرة الشكل والمضمون. فجاءت المفارقة عبر عنصر التحقيق بالحرف (قد) الذي افاد تحقيق الحدث المفارقتي مع الفعل الماضي (غلبت) ومن ثم ينتقل لخطابها في (جمعتِ) (عندك) لتتكمل تلك الأيقونة بمضمون واضح داخل سياق النص التي تمس القيم الجمالية بزوايا التأويل والروابط النصية بشكل مميز.

ومن المفارقات المتناقضة التي نجدها في أبيات بشار بن برد (العمى، البصير) إذ جاءت هاتان المفارقتان في معرض حديث الشاعر عن الأعمى والبصير إذ يفتخر بنفسه مفارقة ذاتية إذ يقول[٣٢]:

إذا وُلدَ المولودُ أعمى وجدتُهُ وَجَدّكَ أهدى من بَصير وأحْولاَ
عميتُ جَنيناً والذَّكاءُ من العَمى فنئتُ عجيبَ الظَّن للعلمِ معقلاَ

يتجلى البعد المفارقاتي في البيتين بوساطة وصف الشاعر لعاهة العمى على البصير الذي تمثل عتبة تشخصن الجو العام عبر عنصر الحوار بين الأعمى والبصير وما يمثله العمى من بصيرة وعقل وأن حاسة البصر القوية ذات الذكاء والفطنة قادرة على إحداث شيء عجيب الظن للعلم وهنا قمة المفارقة اللفظية فاستطاع بهذه الكلمات أن ينفتح على فكرة للمخاطب في سلم البيتين بشيء من السخرية لمن هو بصير لا يمتلك العقل، ليتطور باللفظة التهكمية وسخرية تضاعف هاجس اليأس، والضياع، والخنوع التي يتصف بها بعض الناس في كون الحال وسياقية الحوار بشكل مباشر وغير مباشر[٣٣].

ولكن المفارقة التي يكشفها فعل التفضل (أهدى) الذي يمثل الدلالة الأغلب والأشبع أن يدل على شيئين اشتركا في صفة وأزداد أحدهما على الآخر في تلك الصفة أي بمعنى تفاضل على أخرى[٣٤]، فالذي أهدى جاء ثابت صفات المبالغة في ذلك فالتناظر في الذي حصل بين المفارقتين أدى إلى انقلاب في الدلالة اللغوية إلى مدلولات تتناقض مع دلالتها الأولى كاسناد العمى إلى البصير والعقل وهذا ما اتضح في السياق السوي.

وفي مفارقة أخرى يؤكد بشار بن برد ويفتخر بنفسه وممجداً ذاته[٣٥]:

أنا المُرعِّثُ يخَشَى الجنُّ بادِهَتي ولا ينامُ الأعادي مِن مزاميري

يبالغ بشار بن برد هنا في الفخر بنفسه ابتداءً من الضمير (أنا) الدال على الأنانية الفوقية المفارقاتية ثم ينتقل إلى عجز البيت لجعل من مزاميره مصدر قلق للأعداء الذين لا يستطيعوا النوم طالما وجدت مزاميره القوية المبنية على سخرية تهكمية وهي باللفظ الساخر الذي يستطيع من خلاله أن يلهب مشاعر الأعداء بلفظ واحد وبالتالي يخشونه كي لا يسخر منهم بألفاظه وهذا ما يطلق عليه "براصد المفارقة ومدى ثقافة الشاعر وسرعة بديهيته واستعداده النفسي، وذلك أن هذا الركن (الراصد) هو المقصود في نهاية المطاف بصناعة المفارقة، وهو الذي يراد إيصال الفكرة المصورة إليه"[٣٦]، وبذلك وظف تلك المفارقة في البيت ليجعل من التوظيف تجلي ثنائي، منبثق عن افتراق الواحد عن الأخر افتراقاً ضدياً، ولكن تجربته التوظيفية أدت إلى الجمع بين تفضي إلى زوال الافتراق التضادي بلفظ هو نسبة معينة مجازية وليس حقيقية بعدها تتلاشى الضدية والتمايز بين الأشياء[٣٧]، والقصد منها التاثير في المتلقي في إنتاج مسافة فنية قائمة على جمالية المفارقة التي

توصل بين الذات (الشاعر) والقارئ البارع في بوتقة الخطاب الشعري فيما بين الأثنين؛ لأن الشعر هو فن ليس فقط ما يعبر به الشاعر عن خلجات نفسه بل كيف يعبر، وما أحدثه من إثارة في نفس المتلقي بصورة مباشرة وغير مباشرة ، ومن ثم الوصول إلى الغاية المثلى لتحقيق نوع من النشوة التعبيرية واللذة اللفظية بالشكل المطلوب للمورفيم (الشعري) الشعر الشاعر بشار بن برد.

خاتمة البحث

أدت المفارقة دوراً بارزاً في صياغة النص الشعري لبشار بن برد، إذ أنها وضحت لنا مدى انسجام وتناسق الشاعر وتوافقه في إعطاء صفة تلك المفارقة على سطح نصه الشعري، وهذا يكشف لنا عن مدى تعلق الشاعر بالمفارقات المتنوعة بمن حوله من الناس، وشكل عنصر المفارقة السمة البارزة في أبياته، وهذا ما يحول بنا القول بأن بشار بن برد كان كفيفاً يعاني من شدة تلك العاهة وكان تعلق الشاعر بالمفارقة ما هو إلا محاولة منه للنهوض بواقع حياته التي قد تلونت بالحزن والشدة وعدم الإبصار لكنه استطاع أن يوظفها وينجح في إضفاء مشاعره الداخلية لأنها تمثل القوة التي يطمح إليها بشكل أو بأخر كان لحضور الطبيعة واضحاً جلياً في مفارقاته التي ضمنها للدلالة على القوة والتعبير عما في داخله من رغبة في الحصول على موقع ومكانة مهمة في مجتمعه ومحيطه الآسري.

وظف في مفارقاته أحد أساليب البلاغة العربية إلا وهو الطباق والتضاد فالأشياء تزداد إحساناً بالتضاد والسخرية بينت ذلك في أبياته، رغبة منه في إخراج نصه الشعري بأبهى لوحة جميلة، وزيادة عمقها بالشكل المفارقاتي من أجل إبراز تلك المفارقات.

وكذلك أوضحت الدراسة بأن الشاعر المكفوف ولاسيما بشار بن برد يُعد من الشعراء الذين اعتمدوا في تجربته الشعرية على عدة موارد طبيعية اعتماداً مهماً جمع فيه بين المفارقة بشيء من الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة وصولاً غلى محاكاة لاستلهام المعاني الشعرية التي يريد بيها صوراً ومشاهد متنوعة، وهذا ما أنعكس في نفسه وما نبضت به قريحته الشعرية ورسمه بالكلمات، جاعلاً من الخطاب الشعري رسالة تعكس مدى تصور الشاعر لذلك الصراع النفسي المتناقض الذي ينتابه ي مراحل حياته، ومدى نظرته التأملية إلى ما يحيط به من أشياء، ومحاولة تعليل، وتأويل، وتصور ملامحها، وإيحاءاتها بالشكل الذي نسجه عبر ألفاظ شعره.

الهوامش:

(١) ينظر لسان العرب، مج٧-١٠، ٨٢-٢١٩، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م.

(٢) ترتيب القاموس المحيط، طاهر احمد الزاوي الطرابلسي، ط٣، ١٩٨٠، الدار العربية للكتاب، ص ٤٢٣.

(٣) تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، مطبعة تأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٣١.

(٤) ينظر مدخل نقدي لدراسة الفلسفة، محمد عبد الله الشرقاوي، ٩٣، مكتبة الزهراء، القاهرة، ط٢، دار الجبل، ١٩٩٩.

(٥) ينظر المفارقة وصفاتها، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، سي ميويك، ص ٢٧، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، د.ت.

(٦) ينظر الخطابة، ارسطو ترجمة عبد الرحمن بدوي، وزارة الثقافة والاعلام، العراق، ١٩٨٠، ص ١٧٥.

(٧) المفارقة في شعر أبي العلاء المعري/ ٢٠٣.

(٨) المفارقة في القرآن الكريم، د. محمد العبد / ١٦.

(٩) المفارقة، دكتورة نبيلة إبراهيم، مجلة فصول، المجلد السابع العددان الثالث والرابع، ١٩٨٧، ص ١٣١-١٤١.

(١٠) ينظر لسان العرب، مج٧-١٠، ٨٢-٢١٩، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م.

(١١) ينظر البرهان في علوم القرآن، الزركشي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٢، ٨٤-٨٥.

(١٢) اسرار البلاغة، عبد القادر الجرجاني، تحقيق محمود ومحمد شاكر، ط١، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩١، ص ٢٧-٣٠.

(١٣) في الشعرية، كمال أبو ديب: ١٩.

(١٤) ينظر: أساليب الشعرية المعاصرة، د. صلاح فضل: ٢٩.

(١٥) ديوان بشار بن برد، ٤٧/٤.

(١٦) ينظر المفارقة بين شعر ابي العلاء المعري، د.حسن عبد راضي، ط، بغداد، ٢٠١٣، دار الكتب والوثائق، بغداد، ص ٢٥١.

(١٧) ظواهر اسلوبية في كتاب جوهر الكنز لابن الاثير الحلبي، د.محمود درابسة، مجلة ابحاث اليرموك، المجلد ١٧، العدد ١، لسنة ١٩٩٩، ص ١٩٠.

(١٨) ينظر المفارقة وصفاتها، د.سي ميوك، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، موسوعة المصطلح النقدي سلسلة الكتب المترجمة، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٢، ص ٣٢.

(١٩) ديوان بشار بن برد، ٣٤٠/١-٣٤١.

(٢٠) ينظر الثنائية الكبرة لابن الفارض، دراسة اسلوبية، هشيار زكي حسن احمد، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٢، ص ٥٧.

(٢١) المفارقة ي كافوريات المتنبي، أمل نمير، مجلة أبحاث اليرموك، المجلد ١٥، العدد ٢ لسنة ١٩٩٧، ص ١٦.

(٢٢) عمر بن الفارض من خلال شعره، ميشال فريد غريب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط١، ١٩٦٥، ص ٩٦.

(٢٣) ديوان بشار بن برد، ٣٩/٤.

(٢٤) ينظر: الآخر في شعر ابن زيدون، عبد الحافظ خلف صالح السبعاوي، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، كلية التربية، ٢٠١٣م، ص ٢٩.

(٢٥) ديوان بشار بن برد، ٢٥٦/١.

(٢٦) ديوان بشار بن برد، ٢٢٠/١.

(٢٧) ديوان بشار بن برد، ١١١/٣.

(٢٨) ظواهر اسلوبية في كتاب جوهر الكنز لابن اثير الجلبي، د.محمود دراسة، مجلة ابحاث اليرموك، المجلد ١٧، العدد ١، ١٩٩٩، ص ١٩٠.

(٢٩) ديوان بشار بن برد، ٢٦٥/٣.

(٣٠) ينظر: لغة الغياب في قصيدة الحداثة، كمال أبو ديب، مجلة الاقلام، ع٥، ١٩٩٨، ص ٦.

(٣١) ديوان شعر بن برد ١٨٣/٣.

(٣٢) ديوان شعر بن برد ١٦٣/٤.

(٣٣) الحداثة في الشعر العربي الحديث، المفارقة، الحلم، الجسوم، د. محمود خليف الحياني، ٣٢.

(٣٤) ينظر: معاني النحو، د. فاضل السامرائي: ٣١١/٤.

(٣٥) ديوان شعر بن برد ١٦٣/٤.

(٣٦) المفارقة في شعر أبي العلاء المعري، ٤٣.

(٣٧) ينظر: تجليات الشعر الصوفي، د. أمين يوسف عودة، ٣٥٨.

المصادر والمراجع

١. اسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، ط١، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٩١م.

٢. أساليب الشعرية المعاصرة، د. صلاح فضل، دار الآداب، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

٣. تجليات الشعر الصوفي، قراءة في الأموال والمقامات، دراسات أدبية، د. أمين يوسف عودة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٤. الحداثة في الشعر العربي الحديث، المفارقة، الحلم، الجسد، د. محمود خليف الحياتي، ٢٠١٢م.

٥. في الشعرية، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

٦. معاني النحو، د. فاضل السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

٧. البرهان في علوم القرآن، الزمخشري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيرو، ١٩٧٢م.

٨. تاريخ الفلسفة اليونانية، يوسف كرم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦م.

٩. ترتيب القاموس المحيط، طاهر احمد الزاوي الطرابلسي، ط٣، ١٩٨٠، الدار العربية للكتاب.

١٠. الخطابة، ارسطو ترجمة عبد الرحمن بدوي، وزارة الثقافة والاعلام، العراق، ١٩٨٠م.
١١. ديوان بشار بن برد شرح، محمد الطاهر بن عاشور، تعليق محمد رفعت فتح ومحمد شوقي أمين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٤م.
١٢. عمر بن الفارض من خلال شعره، ميشال فريد غريب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.
١٣. المفارقة في شعر ابي العلاء المعري، د.حسن عبد راضي، ط١، بغداد، ٢٠١٣م.
١٤. المفارقة وصفاتها، د.سي ميوك، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، موسوعة المصطلح النقدي سلسلة الكتب المترجمة، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٢م.
١٥. مدخل نقدي لدراسة الفلسفة، محمد عبد الله الشرقاوي، مكتبة الزهراء، القاهرة، ط٢، دار الجبل، ١٩٩٩م.
١٦. لسان العرب، ابن منظور، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م.
١٧. ظواهر اسلوبية في كتاب جوهر الكنز لابن الاثير الحبي، د.محمود درابسة، مجلة ابحاث اليرموك، المجلد ١٧، العدد ١، ١٩٩٩م.
١٨. المفارقة في كافوريات المتنبي، أمل نصير، مجلة ابحاث اليرموك، المجلد ١٥، العدد٢، ١٩٩٧م.

ثانياً: الدوريات

١. المفارقة، دكتورة نبيلة إبراهيم، مجلة فصول، المجلد السابع العددان الثالث والرابع، ١٩٨٧،
٢. ظواهر اسلوبية في كتاب جوهر الكنز لابن الاثير الحلبي، د.محمود درابسة، مجلة ابحاث اليرموك، المجلد ١٧، العدد ١، لسنة ١٩٩٩.
٣. المفارقة ي كافوريات المتنبي، أمل نمير، مجلة أبحاث اليرموك، المجلد ١٥، العدد ٢ لسنة ١٩٩٧.
٤. ظواهر اسلوبية في كتاب جوهر الكنز لابن اثير الجلبي، د.محمود دراسة، مجلة ابحاث اليرموك، المجلد ١٧، العدد ١، ١٩٩٩.
٥. لغة الغياب في قصيدة الحداثة، كمال أبو ديب، مجلة الاقلام، ع٥، ١٩٩٨

ثالثاً الرسائل الجامعية:

١. الآخر في شعر ابن زيدون، عبد الحافظ خلف صالح خلف السبعاوي، رسالة ماجستير، جامعة الموصل، كلية التربية/ قسم اللغة العربية، ٢٠١٣م.
٢. التائية الكبرى لابن الفارض، دراسة اسلوبية، هشيار زكي حسن احمد، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٢م.

Paradox in the Poetry of Bashar Bin Al-Berd

Selected Exampled

Dr. Hamad Mohammed Fathi,

Department of Arabic Language of Acts

University of Mosul

Abstract

This study deal with paradox in the poetry of Bashar Bin Al-Berd. It is an attempt to consider some selected examples in a way that fits the poet's situation in formulating the general form of paradox however small it is. This serves in identifying the richness of the poetic text and its subject matter especially that the text may have some explanation that differs from other explanations of a certain poetic text on the same topic, but breaking the scope of prediction, which is built on the verbal or the implied paradox hindered the access to the end of the text when the poet aimed, through that, to make the delight of the text flows through situations that had different functions that give the text clear and distinctive peculiarity that had many characteristics both on the verbal and the implied levels of recognition.